**Afro-Asian Journal of Scientific Research (AAJSR)**
المجلة الأفروآسيوية للبحث العلمي (AAJSR)
E-ISSN: 2959-6505
Volume 1, Issue 3, July-September 2023, Page No:121-130
Website: https://www.aajsr.com
**SJIFactor 2023: 3.908** **ISI 2023: 0.337**

# الغموض في الشعر العربي الحديث

محمد البكار[1*]، د. امحمد واحميد[2]
[1، 2] كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية

# Ambiguity in modern Arabic poetry

MOHAMED EL BAGGAR[1*], MOHAMED OUAHMID[2]
[1,2] Faculty of Letters, Languages and Arts, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

*Corresponding author simohamedelbaggar2022@gmail.com *المؤلف المراسل
**تاريخ الاستلام:** 2023-06-10 **تاريخ القبول:** 2023-07-17 **تاريخ النشر:** 2023-07-25

**الملخص**
سندرس في هذا المقال ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث منطلقين من إرهاصاته الأولى في النقد العربي القديم وبوادره الأولى مع شعر أبي تمام، لننتقل إلى حضور الغموض في الشعر الحديث مع تبيان أسبابه الفنية ودراستها عند الشاعر والقارئ وحتى القصيدة الشعرية. لقد شكل الغموض أحد الخصائص المميزة للتجربة الشعرية الحديثة خاصة لدى رائد الحداثة الشعرية أدونيس الذي سنعمل على تبيان موقفه من ظاهرة الغموض في الشعر الحديث.

**الكلمات المفتاحية:** الشعر الحديث، الغموض، الغموض في الشعرالعربي الحديث، أدونيس.

**Abstract**
In this article, we will study the phenomenon of ambiguity in modern Arabic poetry, starting from its first precursors in ancient Arab criticism and its first signs with Abu Tammam's poetry. Ambiguity has formed one of the distinguishing characteristics of the modern poetic experience, especially for the pioneer of poetic modernity Adonis, who will work to clarify his position on the phenomenon of ambiguity in modern poetry.

**Keywords:** Modern poetry, Aambiguity, ambiguity in modern Arabic poetry, Adonis.

## مقدمة:

لا شك أن الشعر العربي هو ديوان العرب وسجلهم التاريخي الذي يحفظ لهم أنسابهم ولغتهم، وهو كذلك صانع الشخصية العربية وأساس بناء نسقها الثقافي المحكوم بشروط ثقافية وتاريخية واجتماعية، والمثير للانتباه أن العرب عرفوا بالشعر وما ضاهتهم أمة أخرى في هذا الإبداع حتى أن الثقافة العربية أمة شعرية من أولها إلى آخرها.

وقد عرف هذا الشعر مسارا متحولا بين تعدد الأغراض واختلاف التيارات نتيجة تحولات البيئة العربية من الناحية الزمنية وكذلك الثقافية. والمعلوم أن الشعر ما فتئ يظل على نموذج أو تقليد شعري واحد سواء من حيث المضامين الشعرية أو الجانب الشكلي، لكن ما شكل الفرق وكان بمثابة النقطة التي أفاضت الكأس هي نكبة 1948 وما خلفته من فجوة بالنسبة للإنسان العربي حيث تركته يعيد النظر في هذا الواقع وفي ذاته، و في عديد من القضايا المرتبطة بمجتمعه وبيئته بصفة عامة، ولم يستفق العرب من

سباتهم العميق حتى عصفت بهم نكسة أخرى سنة 1968 أبانت عن عجزهم في مواجهة التحديات والصعاب التي تلم بهم وكشفت عن نقط الضعف في الشخصية العربية، الأمر الذي زاد من اتساع رقعة المستعمر في الأراضي العربية لتقوم بعدها محاولات السعي نحو التحرر والمطالبة بالاستقلال من أجل تكوين هوية عربية مستقلة بذاتها رغم أن التبعية وحضور سلطة الآخر ظل حاضرا في شتى المجالات.

وقد كانت هذه العوامل وغيرها سببا في بروز حركة الحداثة التي لم ترتبط بالمجالي الفكري والاقتصادي فقط، وإنما انتقلت إلى الميدان الشعري فأصبحت ثورة جديدة تسمى الحداثة الشعرية هذه الأخيرة التي أخذها الشعراء الحداثيين شعارا لهم في التجربة الشعرية الجديدة هدفها الخروج عن النموذج الشعري القديم المبني على نظام الشطرين المتناظرين ووحدة الروي والقافية، إلى بناء شكل جديد للقصيدة العربية تحرر الشاعر من قيود الشكل والمضامين التقليدية السائدة، كما عدت ظاهرة الغموض في الشعر من الخصائص المميزة للتجربة الشعرية الحديثة وهي ليس وليدة اللحظة وإنما لها جذور تاريخية في النقد العربي القديم مع شعراء أمثال أبي تمام، ولم يستغني شعراء الشعر الحديث عن هذه الميزة الجمالية والفنية بل حضرت في أشعارهم ودافعوا عنها وهذا ما نجده عند أدونيس مثلا.

## 1. ظاهرة الغموض في النقد العربي القديم

شكل الغموض في الشعر إشكالية كبرى بين عموم القراء ودارسيه، والحديث عن الغموض في الشعر ليس بالجديد، بل له جذور تاريخية وثقافية يقتضي البوح بها والكلام عنها رجوعا بالزمن خطوات إلى الوراء، فغموض الشعر والتباس معانيه ومضامينه هي من الإشكالات التي برزت منذ العصر العباسي، وذلك عندما استهل أبي تمام قصيدته بقوله:

هن عوادي يوسف وصاحبه فعزما فقد أدرك السؤال طالبه

هذا البيت أثار حافظة أبا سعيد البصير وأبا العميثل الأعرابي، اللذان ردا على مطلع القصيدة بهذا الشكل وقولهم لأبي تمام " لما لا تقول ما يفهم "، وقد برز هذا النوع من الشعر المتسم بالغموض مع شعر المحدثين. إذ الغموض في الشعر السمة الرئيسية التي عرف بها شعر أبي تمام حيث كان شعره يشكل نوعا جديدا ثم الخروج والانسلاخ به من عمود الشعر، وبدأ الغموض منذ ذلك يحدث جدلا نقديا في العصر العباسي، وترك بصمته كقضية لها مؤيده ومعارضوه. ومن ثم انقسم العصر العباسي إلى من ينضمون الشعر على وثيرة عمود الشعر، وآخرين ينضمون على وثيرة الشعر المحدث، وكان من أبرز المنتصرين لهذا الشعر الغامض أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الذي عد الغموض سمة الشعرية الفاخرة وذلك بقوله "أفخر الشعر ما غمض، فلم يعطك غرضك إلا بعد مماطلة منه "[1].

فكان هذا الرأي ردا على أولئك الذين يعيبون الشعر بحجة الغموض، وأن الشعر الفاخر هو الذي لا تتمكن منه بسهولة، وإنما يترك القارئ يبدل جهدا في فهم القصيدة، إلا أن هناك رأي أخر يرى في شعر المحدثين ليس كله غامض، وإنما هي أبيات شعرية لم يستطع النقاد والدارسين تفكيك لغزها وإزالة لبسها، لذلك ظل هذا الشعر دائما منعوتا بالغموض يقول الدكتور سعيد السريحي " لذلك كان المشكل في شعر هؤلاء المحدثين هو ذلك الشعر الذي لم يستطع النقاد والبلاغيون حل أبياته إلى جمل فعلية يرون فيها المعنى، أما تلك الأبيات التي تيسر لهم تجاوز شعريتها والوقوف على شيء من مضمونها فقد سكتوا عنها متغاضين عن غموضها وعما يمكن أن يكشفه الوقوف عند لغتها من روح شعرية لا يمكن الوقوف عليها دون مراعاة السياق الذي جاءت فيه "[2].

إذن فهذه القصائد الشعرية ليست كلها غامضة، وإنما هي أبيات شعرية، وجب فك هذا الالتباس عنها وتحليلها تحليلا دقيقا حتى يتمكن القارئ من استيعاب مضمونها وإدراك دلالتها. هكذا فإن الغموض له إرهاصات في النقد القديم الذي برز مع أبي تمام هذا الأخير جعل من شعره نزوحا على عمود الشعر

---

[1]- عبد الرحمن القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). عالم المعرفة صدرت في يناير1978، مطابع السياسة الكويت مارس 2002، ذو الحجة 1422. ص:7.

[2]- سعيد السريحي: (حركية اللغة الشعرية، مقاربة أولى لشعر المحدثين في العصر العباسي). النادي الأدبي للثقافة، جدة المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى صفر1420هـ، الموافق مايو 1999م. ص:134.

في العصر العباسي وأسس "مذهبا أدبيا له كافة الخصائص المذهبية إذ تناوله الأدباء والنقاد بالتحليل النظري وإيضاح الخصائص المميزة، كما اقتتلوا في الدفاع عنه أو مهاجمتة والموازنة بينه وبين تقاليد الشعر المتوارثة التي سموها عندئذ بعمود الشعر. وهذا المذهب هو المعروف باسم مذهب البديع الذي اعتبر أبو تمام مثلا له"[3].

- **الغموض في شعر أبي تمام**

يجمع الدارسون والباحثون أن أبي تمام "يكاد يكون الشاعر الوحيد الذي تسبب غموض شعره في إيجاد مكان لـ" قضية الغموض الشعري في خريطة النقد العربي القديم"[4]. وهذا أغلب ما نجده في كتب النقد القديم، حيث ترك هذا الشاعر بصمته في الشعر القديم من خلال لغته الغامضة وأسلوبه الشعري الراقي وخروجه عن النسق الشعري القديم، وقد شكل هذا الشاعر نموذجا شعريا متميزا أصبح نقيضا لعمود الشعر وعرف باسم البديع الأمر الذي جعل النقاد والدارسين يخوضون معارك فكرية وأدبية بين مدافع عنه ومهاجم له حول هذا المذهب الجديد الذي أساسه.

يجد الدكتور عبد الرحمان العقود في غموض شعر أبي تمام ما يفسر ذلك بقوله: " إذن فأبو تمام يتكئ على ثقافات متنوعة اتصل بها اتصالا وثيقا لا يخلو من عمق ودقة. لهذا لا نتردد في الربط بين غموض شعره وصعوبته من ناحية وبين هذه الثقافة بوصفها واحدا من عوامل هذا الغموض. وهذه الصعوبة من ناحية أخرى"[5].

إن الغموض في شعر أبي تمام راجع إلى تضافر وتلاحم جملة من الأسباب التي ساهمت في إعطاء نكهة الغموض في شعره منها؛ موسوعية ذاكرته واطلاعه على شتى المعارف فهو متعمق في بحر الشعر، ومكتسب لثقافة فكرية نتيجة التحولات التي عرفها العصر العباسي والتي لقيت عنده صدى، من هنا نجد أن الغموض في شعر أبي تمام ناتج عن وعي ثقافي وفكري راجع لاكتسابه ثقافة وفيرة مكنته من إثراء قضايا جديدة في شعره.

إذن فهذه عبارة عن نبذة قصيرة مقتطفة من روضة النقد القديم في محاولة منا تبيان بعض إرهاصات الغموض الشعري في الشعر القديم، وهي إشارة لابد منها إذ الواجب وضع الأرضية التي بدأت تظهر فيها بذور الغموض... وإذا كان الحال هكذا في ثقافة عباسية بيننا وبينها الزمن الطويل، وتفصلنا عنها صفحات من التاريخ ومع ذلك كان ريح الغموض يهب وبرقه يخفق بعواصف من الشعر. فماذا يمكن القول عن إشكالية الغموض في شعر الحداثة الشعرية الذي أصبح وجعا يشكو منه حتى النقاد والمثقفون؟

## 2. الغموض في الشعر الحديث

إن المتأمل في ظاهرة الغموض في الشعر يجد أنها حاجز يقف أمام القارئ وهو في طريق قراءة قصيدة شعرية، فيقول إن هذا الشعر غامض أو هذا البيت ملتبس؛ أي أن هناك حاجزا يقف أمامه دون الوصول إلى المبتغى، ويشكل عرقلة تجعله لا يقوى على النهوض لمتابعة القراءة وتحليل القصيدة ومسايرة مجراها. يستهل القارئ المستهلك للقصيدة فتجذبه النظرة أول ما ينظر إلى إطارها أو هيكلها، وبدرجة أكبر إلى شاعرها فالقارئ يضع قدما أولى في القراءة يحاول فهم قوالبها وتفكيك رموزها ومداعبة أجزائها، لكنه يتمثل السقوط ويجد نفسه خاوي الوفاض لم يفهم قط فيعوده الشك وتخونه الذاكرة ويتساءل: ما علة هذا الغموض؟ هل أنا لم أستطيع مجارة القصيدة؟ أم أن معانيها لا تبوح؟

- **غموض الشعر عند القارئ**

لقد شكل الغموض عقبة بالنسبة للقارئ العربي الذي يسعى إلى الانغماس في النص الشعري، وحاجزا يقف أمامه دون استكمال فهم معاني القصيدة كاملة، إن الغموض نقيض الوضوح والبيان الذي اعتاد عليه القارئ، وأصبح جزءا من وجوده حتى أصبحنا ندعي الكل واضح. فلم يترك القرآن الكريم غموضا لدى الإنسان في كل ما يحيط بوجوده، ثم جاءت السنة لاستكمال ما بدأه القرآن ولتوضح أمورا

---

[3]- محمد منذور: (الأدب ومذاهبه). مرجع سابق، ص ص:38-39.
- عبد الرحمن القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:22.[4]
- المرجع نفسه، ص: 23.[5]

قد يشكك الإنسان في وجودها. أما الغموض في الشعر فهو ظاهرة وإشكالية برزت منذ العصر العباسي، والظاهرة والإشكال يطرح كثيرا من الأسئلة والإشكالات المرتبطة بهما معا، فهما مفهومان من بذرة واحدة التي هي الغموض.

إن هذا النوع من الشعر الجديد لم يألفه القارئ شكلا ومضمونا، بل إنه يأبى القديم وكل ما وجد عليه آباءه، إنه فطر على القديم وولع به وبثقافته وبرونق شكله وجمالية مضمونه وحس وزنه وقافيته، لذلك لم يستطع التفاعل مع الجديد والانفتاح عليه، بل تجذبه العادة التي عهدها فهي سهلة الذوق واحترف فيها. أما الشعر الحديث فلا زال القارئ يتخبط في الهوة. بناء على ما سبق أجد أن هناك سؤالا يذهب إلى القول إذا ما كان هذا الغموض له رابط إيديولوجي؟ إن المتأمل في هذه الإشكالية التي يطرحها الغموض يرى أن الأمر يبدو كذلك؛ لأننا أحببنا مبدأ القديم قرونا من الزمن ونحن نسمع ونقرأ ونهوى الشعر القديم في هذا الصدد يقول الدكتور عز الدين إسماعيل " وكثيرا ممن ألفوا قراءة الشعر العربي القديم يواجهون صعوبة كبيرة في التجاوب مع الشعر الجديد وربما رفضوه من أجل هذا الصعوبة "[6].

من هنا أجد أن قراء الشعر العربي اعتادوا الشعر القديم وألفوه لما يتميز به من سهولة ووضوح، وهذا ما جعلهم يتفاعلون مع هذا الشعر الذي ينبني على نظام ثابت وبناء هندسي موحد، أما الشعر الجديد فإن الشاعر في لغته ينغمس في براثين الأرض لينتزع الكلمة ويغطس في أعماق البحر لينتشل العبارات من عمقها، وينسجها في نسيج جديد لم نعهده ولم نتعود عليه إنه يفرغ الكلمات من شحنتها القديمة ويشحنها شحنة جديدة. فاللغة التي يعبر بها الشاعر شكلت عائقا يحول بين القارئ والنص الشعري، حيث يهرب الشاعر بالكلمات من أحضانها، وينتزعها من جذورها ويضعها في مناخ جديد مستنشقة هواء جديدا، إنه يمنحها روحا جديدة غير التي كانت تحيى بها وهذا ما لم يلتفت إليه القارئ العربي ولم يستسغه، وإنما كان ينظر إلى الشاعر كمنشد ينشد قصيدته وهو يكتفي بالسماع، لذلك كان حرص الشاعر القديم هو الإتيان بشعر يسهل على القارئ فهمه وتذوقه، لكن دون التدقيق والتمحيص في الأشياء ومحاولة اكتشاف ما وراء معالم الكلمات الموظفة، وهذا ما حاول الشاعر الجديد التمرد عليه.

لم يخلى الشعر العربي القديم من ظاهرة الغموض كما أنها أيضا حاضرة في الشعر الحديث، الذي اتسم بالغموض بشكل جد واضح، وذلك راجع بالأساس كون التجربة الشعرية تسعى إلى التعبير عن رؤيا واسعة تنظر إلى آفاق بعيدة وتبحث في أمتعة المجهول، وهذا ما يفرض على لغتها الشعرية الابتعاد والنزوح عن كل ما هو فوق السطح والغوص في الأعماق. يقول أدونيس: "أن نرى في الكون ما تحجبه عنى الألفة والعادة، أن نكشف وجه العالم المخبوء، أن نكتشف علائق خفية، وأن نستعمل لغة ومجموعة من المشاعر والتداعيات الملائمة والتعبير عن هذا كله. تلك هي بعض من مهمات الشعر الجديد وهذا هو امتيازه في الخروج من التقليدية. فقوام الشعر الجديد معنى خلاف توليدي لا معنى سردي وصفي. إنه كما يقول الشاعر رينه شار "الكشف عن عالم يضل أبدا في حاجة إلى الكشف "[7].

إن الغموض في هذا الشعر هو كشف الحقيقة وإزالة الزي عن كل ما هو محجوب، إنه سير في أعماق النفس، ومحاولة البحث عن جواب لقضايا وإشكالات منها البحث اللامتناهي عن ماهية الوجود، وهذا ما يتضح عند شعراء كثر كنازك الملائكة وأدونيس على سبيل المثال، بالإضافة إلى استعمال لغة جديدة تعبر عن معنى جديد غير الذي عرف من ذي قبل، وهذا لا يتأتى إلى بتجاوز النمط الشعري القديم، ولذلك كان هذا الشعر الجديد موصوفا بالغموض، لأنه يتجاوز الوصف والسرد ويعتمد لغة حساسة توليدية لها دلالات أبعد وتخلق عبارات جديدة. ثم يضيف أدونيس قائلا " الشعر الحديث غامض. شعرك على الأخص"[8].

إن تفكيك هذا القول هو في حد ذاته غموض، فهذه إدانة للغموض ووضعه في قفص الاتهام، لكن السؤال يظل مطروحا هل الشعر الحديث كله غامض؟ أم أنه نتاج شعري أو بعض الإنتاجات هي ما تختزن معانيها ولا تبوح إلا بالغموض؟

---

[6]- د. عز الدين إسماعيل: (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية). دار العودة ودار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة1981. ص:187.

[7]- أدونيس: (زمن الشعر). دار العودة بيروت، الطبعة الثانية منقحة ومزيدة 1984. ص:9.

[8]- المرجع نفسه، ص: 276.

- **الغموض عند أدونيس**

لقد ذهب أدونيس إلى أن الغموض هو ما يميز هذا الشعر عن سابقه ويعطيه رونقا وبعدا جماليا، حيث إن إدراك معنى القصيدة يفقد القارئ متعة ولذة القصيدة لذلك يقول " والحق أنه ليس من الضروري لكي نستمتع بالشعر أن ندرك معناه إدراكا شاملا، بل لعل مثل هذا الإدراك يفقدنا هذه المتعة"[9]. إذن فالغموض بالنسبة لشاعر الحداثة هو بمثابة الملح في الطعام وله نكهة خاصة تجذب القارئ للقصيدة مثلما يجذب الطعم السمكة، وإذا كان الشعر واضح المعاني فإن القارئ لا يبذل أي جهد في تأويل معاني ودلالات القصيدة وكشف ما خلف السطور لذلك كان قولهم أفخر الشعر ما غمض، وفي نفس الاتجاه يقول الدكتور عز الدين إسماعيل " إن الشعر الجديد يتسم في معظمه، بخاصة في أروع نماذجه، بالغموض. وهناك حقيقة عامة تقول أنه إذا كان « الوضوح » ممكنا فإن « الغموض عجز» "[10]. فتعبير عز الدين إسماعيل هذا يوحي أن الغموض في الشعر الجديد راجع لكونه يعطي جمالية في التعبير، وأن هذا الغموض لا يوجد إلا في تلك النماذج الشعرية الرائعة، من هنا يتضح أن هذا الغموض هو أمر ملازم للشعر لا يكاد ينفك عنه الشاعر؛ لأنه أصبح يعبر عن شعره بلغة شعرية حية تنزح عن المألوف وتهرب من هذا الواقع، وإذا كان الوضوح أمر اعتاده القارئ في القصيدة التقليدية، فإنه لا بد له أيضا أن يتكيف مع هذا الشكل الجديد.

وفي رأي أخر يرى إيليا الحاوي أن الغموض هو من طبيعة الشعر لأن نفس الشاعر غامضة إذ يقول" ومن ذلك اتصفت بعض التجارب الرمزية بالغموض، وهم يحسبون أن الغموض ليس أمرا طارئا على الشعر، بل إنه أمر ملازم لطبيعته، لأن النفس غامضة والتجربة غامضة فكيف يفسر عنها بالوضوح دون أن تندثر وتندحر وتتعافى، والغموض ليس الإبهام المعتمد بل إنه تلك الغلالة الشفافة التي تترأى الأشياء من قلبها أو أنها مثل مياه الغدير عميقة وجلية"[11].

انطلاقا من كلام إيليا الحاوي ألاحظ أن الرمزية الغربية كان لها تأثير كبير على الشعراء العرب، فالشعر هو تعبير عما تعيشه الذات أو بالأحرى هو كثلة من المشاعر والأحاسيس الداخلية يختلط فيها الفرح بالحزن والأمل بالألم... ويصوغها الشاعر في قصائده التي تشكل ترجمة لما تعيشه نفسه، لذلك يجنح نحو إكسابها عبارات جديدة لم تبصرها عين القارئ ولم تدركها ذاته، ويعمد إلى الترميز لها بدل البوح بها في عبارة رخيصة.

ويورد الدكتور عبد الرحمن القعود قولا لشوقي وهو ينتصر فيه للغموض، لكن ذلك الغموض الذي يتجلل كما يقول " من حنادس الليل بحجب وأستار، فإذا أعملنا فيه عقولنا وأجهدنا ما وسعنا الإعمال والإجهاد، ولم نتبين شيء غير الظلام الموحش والحلوكة الدامسة "[12]. من هنا فالغموض رد فعل مباشر على الوضوح والسهولة الذي امتاز به الشعر العربي والذي وجد لدى القارئ اهتماما واستيعابا لمعانيه ودلالته، والغموض في الشعر راجع إلى كون الشاعر يسبر أغوار النفس، ويسبح في الأعماق لا فوق السطح، وينسج عبارات وأفكار مفعمة بالخيال والفكر، كما أنه يجنح نحو لغة جديدة لغة تنفض عنها غبار التراث والقديم وتكتسي كل ما هو غير مألوف.

إن الغموض في شعر الحداثة هو من الأمور التي لا يمكن الحسم فيها في مجال النقد الأدبي، وإنما ستظل الآراء توضع فوق طاولة هذا الشعر، وستظل التهمة تتقاذف بين النص الشعري وشاعره من جهة والمتلقي من جهة ثانية، وكل واحد منهم يوجه التهمة للأخر بما يحمله كل طرف من أدلة ودلالات لتبرئة نفسه. وأعود إلى السؤال المطروح سلفا حول كلية الغموض في الشعر، فيجيب رمز الحداثة الشعرية أدونيس وهو يحاول أن يوضح للقارئ أن الغموض في الشعر الحديث، إنما هو في شعر شاعر وليس في الشعر الحديث كله، لذلك يقول أدونيس "ولا يجب إذا أردنا الدقة في النقد والحكم، أن نتكلم على «الشعر الحديث» وإنما يجيب أن نتكلم على نتاج محدد لشاعر محدد"[13].

---

[9]- المرجع نفسه، ص:21.

[10]- د. عز الدين إسماعيل: (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية). مرجع سابق، ص:187.

[11]- إيليا الحاوي: (في النقد والأدب، الجزء الخامس، مذاهب فنية غربية عربية، أبحاث ونماذج من الشعر العربي الحديث). مرجع سابق، ص:64.

[12]- عبد الرحمن القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:9.

[13]- أدونيس: (زمن الشعر). مرجع سابق، ص:276.

لكن لماذا تتعالى الأصوات بالرفض الشعر الحديث غامض؟ وأدونيس يقول أنه إذا أردنا الدقة في النقد والحكم أن نتعامل مع نتاج شعري محدد لشاعر ما، حتى يتمكن القارئ من حصر هذا الغموض وتبيان مواطنه والظروف التي أسهمت في تكوين القصيدة، ومن ثم يمكن أن نتحدث عن الغموض، وفي هذا الصدد يرى الدكتور عبد الرحمان القعود أن مسألة الغموض لا يمكن الحسم فيها يقول"إذ في مسألة الغموض والإبهام الشعري لا يتوقع الانتهاء إلى رأي حاسم حولها، فهي من المسائل التي تقبل الاختلاف وتعدد الرأي، والكتابة حولها لا تستهدف حسم هذا الخلاف والقضاء على هذا التعدد وإنما تستهدف الإثراء والتحرش والمناوشة، ليس إثراء موضوع الإبهام الشعري فقط وإنما إثراء النقد الأدبي بوجه عام"[14].

الغموض في القصيدة الحديثة هو ناتج عن النظرة الجديدة التي أصبح الشاعر يوليها إلى العالم، من خلال إعمال العقل والتفكير في جوهر الأشياء والخروج عن كل ما هو مألوف ومتداول، فالشاعر لم يعد يبني قصيدته على أفكار وتجارب تداولت، وإنما يحاول خرق قاعدة الحاضر واستشراف المستقبل وفق رؤية إبداعية متميزة من خلال اتخاذ موقف عقلي من كل ما يحيط به. فالتغيرات التي واكبت تجربته الشعرية جعلته يفكر في نوع جديد من الكتابة والإبداع وهذه هي مميزات الشعر الحديث. لذلك فإن أدونيس يسير نحو توضيح هذا المعطى قائلا " لكن التطورات التي حدثت، منذ ذلك الوقت حتى اليوم، زلزلت في وعي الشاعر الحديث صور عالمه القديم، وزلزلت أفكاره وطرق تعبيره. ولم تعد هناك حقائق مطلقة، ولا أشكال ثابتة، وتبعا لذلك، لم يعد ينطلق من أفكار مسبقة، ولم يعد يصدر عن معان جاهزة، وإنما أصبح يسأل ويبحث، محاولا أن يخلق معنى جديد لعالمه الجديد"[15].

إذن فإن تغير شكل القصيدة ومضمونها، وكذلك نفورها من السهولة والوضوح نحو الغموض والإبهام لم يأتي عبثا، وإنما تتحكم فيه عوامل عدة من بينها، التطورات التي عرفتها القصيدة العربية باستمرار والتي حاولت أن تحدث خلخلة شاملة في وعي الشاعر الذي صار همه هو السؤال والبحث اللامتناهي عن المجهول الذي ربما يكون أفضل بغية الهروب من هذا الواقع، وكذلك التخلص من كل الصور والأشكال التي تضل ثابتة، هذا الأمر جعله ينصهر في عالم جديد عالم لا ينطلق من معان جاهزة، وإنما الشاعر يبني نفسه بنفسه، فنحن على علم أن الشعر الحر هو وليد مجموعة من التطورات والتحولات، ومن ثم كان لزاما أن يقدم شكلا جديد فيقول الدكتور عبد الرحمان القعود " وهكذا لم تعد القصيدة الحديثة تقدم للقارئ أفكار ومعان شأن القصيدة القديمة، وإنما أصبحت تقدم له حالة، أو فضاء من الأخيلة والصور ومن الانفعالات وتداعياتها ولم يعد ينطلق من موقف عقلي أو فضاء فكري واضح وجاهز، وإنما أخذ ينطلق من مناخ انفعالي، نسميه تجربة أو رؤيا"[16].

انطلاقا من هذا النص يتضح أن هناك اختلافا بارزا وقع بين القصيدة القديمة والحديثة التي لم تعد تقدم معان واضحة للقارئ، بمعنى أن العلاقة التي كانت قائمة بين الشاعر الذي يشكل المنشد والمتلقي الذي هو السامع لم تعد قائمة، وإنما صار الشاعر في القصيدة الحديثة باحثا لا يهدأ يتساءل وينفعل له موقف يقدم حالات يسبح في الخيال، ويلتقط منه صورا يبثها على شكل رؤيا، ومن ثم أصبحت القصيدة كلا متناثرا داخل هذا الفضاء يعمل القارئ على جمع شتاتها حتى يمكن القبض على قوالبها وجعلها تبوح بسرها. وهنا يكمن الغموض وتصعب المهمة على القارئ إن لم يكن محملا بثقافة عن هذه التجربة الشعرية الجديدة حتى يتمكن من التغلب على هذا الغموض، إنني حين أتأمل ما قاله أدونيس حول هذا الغموض أجده كأنه من أنصاره ومن دعاته، وكأنه يحاول إصدار فتوى مفادها أن الغموض هو ما يجعل الشعر جيدا، ومرجعه في ذلك قول أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي " أفخر الشعر ما غمض" ويدعم موقفه بقوله " يفترض فيمن يعتبر الشعر هما من همومه الأساسية، أن يعرف أن الغموض في الشعر ليس بذاته، نقصا، وأن الوضوح ليس بذاته، كمالا. الغموض، على العكس، دليل غني وعمق"[17].

---

[14]- عبد الرحمن القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:14.

[15]- المرجع نفسه، ص: 278.

[16]- المرجع نفسه، ص:278.

[17]- أدونيس: (زمن الشعر). مرجع سابق، ص:276.

إذن فأدونيس يرى أن الغموض طارئ على الشعر ولا ينقص من قيمته وجودته، بقدر ما هو دليل غني له قيمة جيدة يضفيها على الشعر، ويزيده رونقا وجمالية على عكس ما يعتبره الآخرون أنه يقلل من شأنه لذلك رأى أدونيس أن للغموض غنى وعمقا كبير في القصيدة.

هذا التغير الذي لم يتقبله المجتمع العربي القديم ونعت هذا الشعر بصفات هي أن هذا التغيير أو الانقلاب إفساد للشعر " بل أكثر: كان يقال عن شعر أبي تمام:« إن كان هذا شعر فكلام العرب باطل » وذهب النقد إلى وصف شعره بأنه « ضد ما نطقت به العرب » وهذا يعني أن شعر أبي تمام، بحسب هذا النقد، ليس عربيا، لأنه بالتحديد غير واضح كالشعر الموروث"[18]. إنه نقد خطير ويطرح كثيرا من الأسئلة، لماذا هذا الشعر ضد ما نطقت به العرب؟ ولما اعتبر هذا الشعر فاسدا؟ وفي بينة من أمره يجيب أدونيس جوابا له من الذكاء والفطنة ما يجعل قولته هذه حكمة لأولئك الذين اتهموا الشعر بالغموض، وعلى أن الغموض أفسد الشعر، إنه يجيب جواب صريحا وبعبارة فتانة تترك السامع ينبهر من هذه القولة يقول" لكن، على الذين يتشدقون، اليوم، بدعوى أن الغموض يفسد الشعر، أن يتذكروا أن ذلك "الغامض" " المفسد" هو بين القلة الذين أسسوا عظمة الشعر العربي، وصنعوا مجدنا العربي"[19].

انطلاقا من هذا النص أجد أن أدونيس يجيب بتعصب على أولئك المتشدقين الذي نعتوا الغموض بأنه مسألة تفسد الشعر، ويذكرهم بأن من وصفوه بالغامض والمفسد الذي لا يبين هو من صنع مجد الشعر وجعله مرفرفا حتى الآن، فلولا أبو تمام ما عرف الغموض في الشعر القديم وما برزت انتقادات حوله وبالأحرى ما كان هناك حداثة شعرية. ولقد حمل أدونيس مسؤولية الغموض إلى القارئ الذي يتخذ من قصور فهمه وقلة معرفته حائطا يختبئ وراءه، ويقول أن الشعر غامض فيعطي الأسباب والمبررات دون وعي لهذا الشعر، لذلك يقول " و بما أن النص يبقى هو هو، لا يتغير، فإن تهمة الغموض باطلة: قناع يخفي به القارئ ضعف ثقافته وقصورها، وإصراره على أن يفهم ما تغير بذهنية لم تتغير"[20].

إن أدونيس يجد للقارئ ثغرة يحمله فيها مسؤولية الغموض باعتبار أن النصوص لا تتبدل وإنما تظل ثابتة، ومن ثم فإن القارئ ليس له مبرر في اتهام الشعر بصفة الغموض، لأنه لابد إن أراد الفهم أن تكون له ثقافة كفيلة بفهم النصوص الشعرية وتحليلها، بالإضافة إلى أنه يجب أن يتفاعل مع هذا الشعر بذهنية تتجاوز التراث، وتفكر بمنطق عقلي حديث بعيدا عن أي خلفية مرجعية مسبقة، لذلك فأدونيس يضع القارئ في محاكمة أقواله ووضعه في قفص الاتهام، فإذا كان هذا النص لا يتغير فإن معانيه تبقى هي هي وبالتالي فإن القارئ من مهامه تفكيك شفرات النصوص وإخضاعها لقراءات متعددة حتى يسهل فهم معانيها، ومن تم فالقارئ لا مسلك له من عدم الفهم والتداعي أن النص غامض.

يرجع أدونيس هذا الغموض إلى القارئ الذي يسعى إلى قراءة شعر حديث بذاكرة قديمة، يقول" هكذا يبدو الغموض وصف يطلقه القارئ على نص لم يقدر أن يستوعبه، أن يسيطر عليه، ويجعله جزءا من معلوماته"[21].من خلال هذا النص يتضح أن القارئ يتحمل مسؤوليته في عدم فهمه للنص الشعري، لأنه لم يقدر السيطرة على هذا النص وأفكاره واستيعاب دلالته التي يحملها، لذلك يجد أدونيس للقارئ كما سبق وأن أشرت هاوية يسقطه فيها ويرمي بكرة الغموض إلى يده. ويذهب أدونيس أبعد من ذلك فيقول " فالغموض إسقاط: إنه وليد هذا الضياع. إنه ناتج عن عدم إدراك الفرق بين طريقة التعبير القديمة والطريقة الحديثة، وعن عدم إدراك معنى زمنية الشعر، وعن الحكم على اللحظة الحاضرة بلحظة تعود إلى حوالي عشرين قرنا، والعجز عن الحياة في حركية التحول"[22].

وبعد كل هذه الأراء التي قالها أدونيس حول الغموض في الشعر يبدو وكأنه يهجو القارئ ويحمله مسؤولية عدم الفهم، بحجج وبراهين تضع القارئ موضوعا في قصص الاتهام داخل محكمة الجنايات الشعرية ويكون أدونيس قاضي الأحكام. فكل التهم موجهة إلى القارئ، لكن ننتظر حكمه الأخير إنه بأقواله يدافع عن الغموض وطالب به، لكن عندما نتتبعه فيما قال ونتحسس خطواته يفاجئنا ويضعنا أمام هذه

---

[18]-المرجع نفسه، ص:279.
[19]- المرجع نفسه، ص:279.
[20]- المرجع نفسه، ص:280.
[21]-أدونيس: (زمن الشعر). مرجع سابق، ص:280.
[22]- المرجع نفسه، ص:280.

القولة حائرين "أرجو ألا يستعجل القارئ، فيستنتج أنني أطالب بالغموض"[23]. فأدونيس في هذه القولة يوضح أن الغموض أمر ملازم للشعر وليس هو من اخترع فتوى الدعوة إلى الغموض، لأن متعة الشعر تكمن في التباس معانيه ودلالته، وأن الوضوح يفقد اللذة في القراءة، لأن الشاعر الحديث يبحث دوما في المجهول واللامرئي ويجعل من القصيدة بركانا تتطاير شرارته بالأفكار والمشاعر الباطنية والأسئلة، وبالتالي فأدونيس لا يبشر بالغموض" وإنما هو تاريخيا، ظاهرة طبيعية، وهذا عائد إلى تفاوت البنى في المجتمع العربي، وإلى استباقية الشعر، مما يولد الانفصال عن الذاكرة والعادة وعن « جمهور الذاكرة والعادة » "[24].

أستنتج أن الغموض هو ناتج عن التغيرات التي طرأت على الشعر، وكذلك راجع إلى التباين الحاصل في البنى الاجتماعية وفي ثقافتهم الفكرية، ومن تم فإن الغموض قناع يرتديه القارئ الذي يعطي حكما مسبقا عن الشعر، لكن الأمر البين والواضح أن القارئ اعتاد الوضوح والسهولة في المعاني، ولم يستوعب وينسجم مع شعر له معاني صعبة ودلالات واسعة تجعله يلزم آلية الحفر من أجل إخراج المعنى، لذلك كانت نظرة أدونيس إلى القارئ نظرة يرى فيها أن هذا الأخير لا يبذل الجهد الفكري الذي يبذله الشاعر في إنتاج القصيدة، لذلك وجب عليه نبش معلوماته المترسخة في تراب الذاكرة والإطلاع على الثقافات والمعارف حتى يكون كما معرفيا يساعده على اختراق الغموض في الشعر وفهمه، ومن تم كان رد أدونيس على أولئك الذين يحاربون الشعر بالغموض قائلا " يحارب الأعماق من أجل أن يبقى على السطح، ويحارب البحر من أجل أن يبقى في الساقية، ويحارب الغابة والرعد والمطر، من أجل أن يبقى في الصحراء"[25].

إذن فأدونيس يعتبر أن من يدعي أن الشعر الحديث غامض، فهو يحارب الجديد لكي يظل راكدا في القديم وهذا ما لا تقبله الذات الشاعرة، لأن في هذا الشعر تغيرات طرأت لا بد أن يسايرها الشاعر شكلا ومضمونا.

ولقد كانت الثقافة بالنسبة للشاعر غذاءا يجد فيه كل ما هو بحاجة إليه، لذلك فإن الشاعر الحديث يمتلك مخزون ثقافي ضخم، ويمتلك ثقافة واسعة تجعله يتلاعب بالكلمات، ويلج عالم الأحلام والخيال ويجعل من اللغة شرارة لما بداخله، فينسج خيوطها كالعنكبوت ويجعلها متشابكة ومتدفقة. فالثقافة شرط أساسي للشاعر الذي يجيب أن تتوفر فيه هذه الصفة، والشاعر ما سمي شاعرا إلا وله ثقافة فكرية وعلمية واجتماعية وملم بكل القضايا، إنه حامل لكوكب معرفي هائل يجعله لا يرسو فوق السطح، وإنما يندفع إلى الداخل، لذلك فالثقافة وعاء أو خزان في ذهن الشاعر يجعله يبلور مفاهيم وأفكار وتصورات جديدة لم تخطر ببال القارئ، يقول الدكتور عبد الرحمن القعود" الثقافة غداء للشاعر وشعره بصقل موهبته، وتهذيب عاطفته وتوسيع آفاق خياله، وتحريك ذهنه وعقله، فهي فاعلة فيه وفي شعره وهو موظف لها"[26].

والشعر الحديث مختلف عن السابق في أمور عدة ومن أبرز تجلياته أن يعمل على" تجاوز الإطراب والغنائية - بمفهومها الحسي القديم - إلى الرؤيا والكشف والحفر في أعماق النفس والأشياء"[27]. إذن فهذا الشكل لم يعد مقتصرا على تلك الرؤية التقليدية التي كان ينظر بها الشاعر إلى الواقع، وإنما تغيرت الأوضاع وأصبحت تجاوزا لما هو سائد إلى كونه رؤيا، وهذه الأخيرة عرفها أدونيس على أنها "قفزة خارج المفهومات السائدة"[28]. وانغراس وتجدر في النفس البشرية من أجل بناء معنى أخر غير الذي عبر به الشاعر القديم، وهذا يلزم ثقافة وفيرة تجعل الشاعر يقدر على مسايرة هذا المشروع الجديد في الكتابة والمضمون. وفي هذا المنحى ذهب الدكتور عبد الرحمان القعود إلى القول " ومع مفهوم، أو مبدأ، التلازم الطبيعي بين الشعر والثقافة، وجد شاعر الحداثة العربية المعاصرة نفسه أمام انفجار معرفي هائل الكثرة والتعدد والتعقد، فاختلط هذا بتجربته الخاصة وانعكس هذا المزيج الفريد الغني على النص الشعري

---

[23]- المرجع نفسه، ص:280.
[24]- المرجع نفسه، ص:280.
[25]- أدونيس: (زمن الشعر). مرجع نفسه، ص:284.
[26]- عبد الرحمان القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:23.
[27]- المرجع نفسه، ص:24.
[28]- أدونيس: (زمن الشعر). مرجع سابق، ص:9.

فأصابه بالعمق والبعد المضموني كما أصاب تقنياته الإبداعية بالتعقد"[29]. فثقافة الشاعر المتراكمة والمتعددة تشكل كما هائلا من المعرفة وجعلت آفاقه واسعة في الكتابة والتعبير عما بداخله في قالب شعري مؤطرا بالعمق ومتخذا بعدا دلاليا سابح في مجال واسع، وهذا ما يجعل القارئ في حيرة من أمره عندما يتلقى نص شعري حديث كشعر أدونيس أو السياب ونازك الملائكة، إن القارئ حين تعترض عليه قصائد من هذا النوع يجد نفسه أمام شعر لم يألفه ولم يتعود عليه بل إنه يقف في الباب دون الدخول إلى قراءة أبيات النص الشعري. فالشاعر الحديث اتصل بشلالات ثقافية لها منابع متعددة، وكلها تصب في مجرى ذاكرة الشاعر الذي يعيد إنتاجها في نص شعري تتداخل فيه روافد مختلفة منها العلمي والخرافي والتاريخي والأسطوري والفلسفي. وهذا ما يضاعف كما يقول إبراهيم روماني " من صعوبة قراءته، وعقدت عملية تلقيه، وزادت من غموض دلالته"[30].

كما أن طريقة التعبير التي يصرف بها الشاعر الحديث قصيدته تختلف على الطريقة التي كانت سائدة حيث يعمل الشاعر الحداثي على تشكيل ألوانه المعرفية وأفكاره التي تحتويها ذاكرته " في صيغة تساؤلات حينا، وفي صيغة محاكمة حينا، وفي صيغة توليد معرفي حينا أخر"[31]. فهذه الأسئلة التي يستسيغها الشاعر في ذهنه تولد دلالات ومعاني يصعب على القارئ فهمها ونزع النقاب عنها من أجل الكشف عن وجهها الغامض. يقول أدونيس في ديوان "المسرح والمرايا" والقصيدة بعنوان "امرأة ورجل":

من أنتَ؟
بهلولٌ بلا مكانْ
من حجر الفضاء سلالة الشيطان
من أنتِ؟
هل سافرت في جسدي؟
مِرارا؟
ما رأيتِ؟
رأيتُ موتي
ألبستِ وجهي؟
ورأيت شمسي مثل ضلّ
ورأيت ضلّي مثل شمسِ
ونزلت تحت سريرتي، وكشفتني؟
أكشفتَني؟
كاشَفْتِني؟ أيقنْتِ؟
لا
أشفِيت بي، وبقيت خائفة؟
بلى
أعرفتِني؟
أعرفتَني؟ "[32].

إن السؤال بالنسبة لشعراء الحداثة هو مفتاح ولوج العالم، وأن الحياة مستمرة مادام السؤال حاضر في الحياة، لذلك يقول أدونيس " من جهتي، ما أزال أطرح الأسئلة. أشعر أن قوتي الوحيدة هي في أن أطرح الأسئلة باستمرار. وأريد أن أحيط كل شيء بأسئلتي: الجحيم والجنة، الأرض والسماء. لذلك لا مكان لي في العالم الذي توقف وانتهى: عالم الأجوبة"[33].

---

[29]- عبد الرحمان القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:24.
[30]- عبد الرحمان القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:24.
[31]- المرجع نفسه، ص:25.
[32]- أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا، صياغة نهائية). دار الآداب بيروت، الطبعة 1988. ص ص:25-26.
[33]- أدونيس: (زمن الشعر). مرجع سابق، ص:144.

انطلاقا من هذا القول لأدونيس نجد أن السؤال له حضور قوي في شعر الحداثيين وبالخصوص أدونيس الذي يرى فيه قوته. ثم يضيف أدونيس "لذلك لا مكان لي في العالم الذي توقف وانتهى: عالم الأجوبة. إن مكاني في العالم الذي يحرض ويقلق، ويكشف عن الأعماق والأعالي: عالم الأسئلة. إن شعري كله سؤال أطرحه على نفسي وعلى الآخرين في آن. لذلك ليس شعري أريكة ولا سجادة، ولا باقة زهر. إنه اللهب وما يدفع إلى أبعد من اللهب "[34].

**خاتمة:**

إن المعرفة الثقافية التي يمتلكها الشاعر ويتشبعها من ثقافات أخرى تشكل عنده أفقا مجهولا يتيه القارئ في تحديده، ويسير بين النافذة والباب دون أن يفتح أحدهما وهذا ما يجعل من الغموض إشكالا، لذا فالقارئ يتطلب منه هو الأخر أن تتوفر لديه معرفة مسبقة بالنص الشعري الذي يتعاطى معه وذلك يساعده في هضم كلماته وانتشال معانيه، والشاعر الحديث لم يدخل هذا الميدان الشعري إلا ولديه معرفة وقراءة لما هو سابق وتشرب الثقافة بمخزون ثقافي قد استوفى حقه، وهذا دافع أساسي يدفع الشاعر إلى نهج ثقافة ترفض الحياد، يقول أدونيس " الثقافة التي نطمح إلى تأسيسها ثقافة ترفض الحياد: إنها تبتكر العالم من جديد"[35]. إن الثقافة التي يطمح شعراء الحداثة إلى تأسيسها، تضعهم في محك البحث عن أساليب ودلالات مختلفة، وطرق جديدة في التعبير لم يتعود عليها المتلقي، وذلك كي لا يسقط في قولة قالها راندل جاريل" أعظم خيانة يرتكبها الكاتب هي أن يصوغ الحقيقة الصعبة في عبارة رخيصة "[36].

**قائمة المراجع:**


1. أدونيس: (ديوان المسرح والمرايا، صياغة نهائية). دار الآداب بيروت، الطبعة 1988.
2. أدونيس: (زمن الشعر). دار العودة بيروت، الطبعة الثانية منقحة ومزيدة 1984.
3. إيليا الحاوي: (في النقد والأدب، الجزء الخامس، مذاهب فنية غربية عربية، أبحاث ونماذج من الشعر العربي الحديث).
4. سعيد السريحي: (حركية اللغة الشعرية، مقاربة أولى لشعر المحدثين في العصر العباسي). النادي الأدبي للثقافة، جدة المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى صفر1420هـ، الموافق مايو 1999م.
5. عبد الرحمن القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). عالم المعرفة صدرت في يناير1978، مطابع السياسة الكويت مارس 2002، ذو الحجة 1422.
6. عز الدين إسماعيل: (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية). دار العودة ودار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة1981.
7. محمد منذور: الأدب ومذاهبه، نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، بدون تاريخ الطبعة.


[34]- المرجع نفسه، ص:144.

[35]- المرجع نفسه، ص:144.

[36]- عبد الرحمان القعود: (الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر وآليات التأويل). مرجع سابق، ص:25.